

ولم يكن له من حافز ظاهر إلى الاشتراك في الرحلة غير ميله إلى الرياضة ، أما أن أمثال هذه الرحلة قد تساعده على تنمية معلوماته عن الصحارى المصرية وطرقاتها فهذا حديث آخر لا محل للخوض فيه الآن ، وللقارىء أن يستتج لنفسه ما يشاء . . .

هؤلاء هم أشخاص الجماعة
أما النبع نفسه فقد سمعت أنه ينبع حار يخرج من الصخر ، ويصب في مياه البحر الأحمر . وأنه ينبع (مكبر) كالنبع الذى فى حلوان . والفرق بين الاثنين أن هذا بارد . أما حمام فرعون فهو يخرج من بطن الجبل شديد الحرارة حتى تلتقى السمكة فى مائه الدافق فتتضج فى دقائق معدودات . وعلت أيضاً أن كهفا يقوم إلى جانب النبع . إذا دخله الإنسان فإنه لا يطبق البقاء فيه أكثر من ربع ساعة لفرط حرارته وشدة ما يعانى الإنسان وهو بداخله من الوهج الذى يتفصد له الجسم عرقاً . وقيل لى إن من دخل هذا الكهف وهو يشكو الرطوبة ، فإنه لا يلبث أن يخرج منه كما ولدته أمه صحة وعافية . أما العين فإنها وإن خرجت من ينبوعها حارة شديدة الحرارة إلا أنها تجرى على شاطئ البحر مسافة طويلة قبل أن تصب فيه . وأنها فى مجراها هذا تتفاوت حرارتها . فهى تبدأ حارة لا تطاق ثم تتناقص حرارتها كلما ابتعدت عن أصل النبع ، حتى إذا جاءت ماء البحر وصلت وهى فاترة يطبقها كل إنسان . وقال لى من كان يحدثنى عنها : وإذا كانت مياه حلوان قد بلغت ما بلغت من الشهرة العالمية وهى باردة يرفعون حرارتها بأنابيب البخار ، فلك أن تصور لنفسك مبلغ ما تتنازبه هذه العين وهى تخرج من بطن الأرض حارة حرارة طبيعية لم تتدخل فيها يد الإنسان . وناهيك بحمام من مائها تعقبه خلوة قصيرة فى ذلك الكهف الذى يليها . . . إن الإنسان ليدخلها ثم يخرج من الكهف بعدها كما يدخل المندبل القذر فى يد (الغسالة) ثم يخرج جافاً ناصعاً من عند (الكواء) !

وكان لى صاحب من ضباط البوليس أرتاح إلى صحبته فعرضت عليه رغبتي فى الاشتراك فى تلك الرحلة فتولى عنى مفاوضة الجماعة فى أمر انضمامنا إليهم . وعاد يبشرنى بأنهم يرجون

حمام فرعون

للاستاذ حسن جلال

علت وأنا فى مدينة الاسماعيلية بأن جماعة من رواد الجبال — سبق لهم القيام برحلة إلى عين كبريتية فى جبل من الجبال التى فى جنوب مدينة السويس ، وأنهم يعاودون التفكير فى تكرار هذه الرحلة ويتأولون لها ، فهفت نفسى إلى الاشتراك معهم لهوى قديم بينى وبين تلك الجهات كان يدفعنى منذ سنين إلى أن أقضى سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع متقلباً بين ربوع جبال القاهرة وضواحيها .

وكانت تلك الجماعة تتألف من :

- ١ — أحد أعضاء مجلس النواب وشيخين من أقاربه .
 - ٢ — ومن تاجر من كبار تجار الاسماعيلية
 - ٣ — ومن تاجر آخر من عيون تجار القاهرة
 - ٤ — ثم من رجل أجنبى من رجال الاعمال إيطالى الجنسية ، مزارع واسعة فى حدود مدينة الاسماعيلية .
- فأما عضو النواب وقريباه فكانوا يشكون الروماتزم ، وكان هذا هو الذى يحفزهم الى ارتياد تلك العين ، فإن لها على ما يقول ناس خواص سحرية فى شفاء الامراض .
- وأما تاجر القاهرة فقد سمع بحديث تلك العين من النائب ناغراه ذلك على أن يجرب سحرها فى أوصله .

وأما تاجر الاسماعيلية فكان على ما فهمت رجلاً لا يحتاج إلى الاستشفاء لا بالحار ولا بالبارد ، وكل همه فى الحياة أن يجلس — آخر النهار فى بعض المقاهى وزجيلته بين ركبتيه يمحصها فتقنقه له حتى تنقطع أنفاسها فيخليها لصاحبها ويعود إلى داره راضياً مرضياً ، وكانت الأسباب كلها منقطعة بينه وبين تلك الرحلة لولا أن له سيارة جميلة أحب صاحبنا النائب أن يضمها إلى القافلة فدعاه للاشتراك فلى الدعوة .

وأما التاجر الإيطالى فكان هو عماد الرحلة وبطلها لأنه كان قائدها الذى يدها على الطريق فى وسط الأودية المهجورة والجبال المتشابهة ، يعاونه على ذلك دليل بدوى من يعملون فى مزارعه ،

بنا على شرط أن نكون ضيوفهم في الحل والترحال ؛ وتذلت بذلك آخر عقبة كنت أتوهم أنها تعترضني في سبيل تحقيق رغبتي لأنني لم تكن لي سيارة خاصة . وليست أمثال هذه الرحلة الطويلة مما يهون فيه الحصول على سيارة بالأجرة . وتحدد موعد القيام بعد يومين من إبرام هذا الاتفاق على أن نجعل قيامنا بعد الفجر بقليل في اليوم المحدد . ولم يبق أمامي إلا أن أتولى إعداد توافه الأمور التي تركها لي مضيئي كالمناشف التي تلزم لتجفيف عرق وأنا في داخل الكهف . والغطاء الذي أتدثر به عند مبيتى معهم على شاطئ البحر في العراء . على أني أبيت إلا أن أستصحب معي سراً بعض المرفهات التي أعلم أنها لم تكن لتخطر لزملائي على بال . فدسستها في حقبتى بغية أن أفاجئهم بها هناك وسط الصخور والجبال . وكانت عندي (ترامس) ثلاثة يسع كل واحد منها لترأ من الماء . فلاتها جميعا بالماء المثلوج — ونسيت أن أقول إن الوقت كان في بداية الصيف — وعطرتها بماء الزهر وأخفيتها في الحقيبة كما أخفيت معها آلة تصوير لالتقط بها بعض المناظر التي تخلد ذكري هذه الرحلة . وقد دلت كل الدلائل على أنها ستكون رحلة عامرة بالذكريات التي تستحق التخليد . ولست أحتاج أن أقول إن زملائنا كانوا قد صارحونا بأنهم سيحملون عنامونة تزويدنا بالماء والطعام . فلما سألت عما إذا كانوا سيحملون هذا الزاد من الاسماعيليه أم من السويس قيل لي إن العرب الذين سنصادفهم في الوديان خلال الجبال كلهم رعاة أغنام . ونستطيع أن نحصل منهم على مائشاه من ضأن وماعز . كما أن البحر هناك مرعى بكر يزخر بألوان السمك . والوديان لا ينقطع منها الماء الجاري . ورجال البدو لا يلبثون أن يحتاطوا بنا ويتنافسون في خدمتنا . فكنت أستمع لهذا الحديث وأرسل أحلامي على سجيبتها لتم بألوانها الساحرة بقية تلك الصورة الخلابه التي لبثت يومين كاملين وأنا أسعد بالقلب بين أعطاف خيالاتها

وأخيراً حل اليوم الموعود ، وكنت على أتم أهبة للرحيل قبل بزوغ الشمس ، وأقبلت السيارات تناديني بأبواقها ، فنزلت فاذا سرب طويل منها يضم أصحاب جميعاً ، فاستقلناها قاصدين إلى السويس ؛ والطريق مابين الاسماعيليه والسويس طريق جميل

مهد أعدته في السنوات الأخيرة شركة قناة السويس ليكون متعماً للطريق القديم الذي يوصل مابين الاسماعيليه وبور سعيد . وهذا الطريق يسير إلى جانب القناة ويتمتع السائر فيه بمناظر بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى التي تمتد على يساره ، بينما تقوم الحقول الخضراء على يمينه وهي حافلة بالأكوخ الصغيرة الساذجة ، وبألوان شتى من المواشى والأغنام ، وكلها دائبة في رعى تلك المروج الناضرة البهیجة . ووصل الركب محطة الكوبري ، حوالى الساعة السابعة صباحاً . وهذه المحطة تقع في شمال السويس ، وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها . وعندها تقع « المعديه » التي ينتقل عليها المسافر من شاطئ القتال الغربى ، إلى شاطئه الشرقى — أو من شاطئه الأفرقي إلى قرى شاطئه الآسيوى كما يقولون — فاضطررنا إلى الوقوف هنا ريثما يقوم عامل « الجرك » بتفتيش أمتعتنا . وقد عجبت لهذا العمل ونحن إنما ننتقل من أرض مصرية إلى أرض مصرية . فلما استفسرت عن السبب علمت أن المنطقة التي نريد أن ندخلها خاضعة لمصلحة الحدود . والنظام الإدارى في تلك المصلحة يكاد يكون مستقلاً عن إدارة الحكومة المصرية . وأنه محظور على من يريد دخول الصحراء في تلك الجهة أن يكون معه سلاح نارى تنفيذاً لأمر المصلحة الذى يقضى بعدم صيد الغزال مثلاً في تلك المنطقة . كما أنه من المحظور أيضاً أن يحمل المسافر معه آلة تصوير حتى لا يسجل بها مناظر ترى المصلحة أنه من الواجب المحافظة على سريتها . وكانت النتيجة الأولى لوقفنا هذه في محطة الكوبري ، أنى خسرت آلة تصويرى ، لأنى اضطررت إلى تسليمها من تلقاء نفسى ، وبذلك ضاعت على فرصة احدى المفاجآت التي كنت دبرتها للاخوان . على أن هذه لم تكن خسارة الوحيدة . فقد بدأ لبعضنا أن يتناول وجبة خفيفة في ذلك المكان تكون بمثابة الفطور لمن فاتته الافطار في منزله . وكنت أنا من هؤلاء . فأردت بعد لقيات ازددتها أن آخذ جرعة من الماء ففهممت بتناول واحد من (ترامسى) ولكن سبقتنى إليه يد أحد الزملاء الكرام يريد أن يبالغ في الحفاوة بي فلا يدعنى أقوم بهذه الخدمة الهينة لنفسى فراعنى إلا أن أراه يملأ كوب الترموس من مائه المعطر المثلوج ثم يهزه في يده هزات يريقه من بعدها على الأرض كما لو كنا

السيارة المتخلفة تقاسي كثيرا قبل أن تلحق بالقافلة وتمسك معها بطرف الطريق . وتكررت حوادث فقد الطريق ونحن بالوادي، ذلك لأن الطرق فيه متشعبة فكان المتخلف عرضة لأن يتبع آثار عجلات غير عجلات سياراتنا كلما غابت عن نظره بقية القافلة . وكم وقفنا وأطلقنا أبواقنا ليهتدى على صوتها من نفتقده من الزملاء . وكم كررنا نحن راجعين في مسلك وعر كنا قد تشهدنا عندما اجتزناه ، فلما فرغنا منه وجدنا أننا قد ضلنا الطريق .

• • •

وأخيراً خرجنا من هذا الوادي وعدنا إلى الصحراء من جديد . ولكنها كانت في هذه المرة صحراء نافرة صخرية يكتنفها جبل عظيم أبيض اللون ناصعه تجوس في سفحه عربات صغيرة وتذب معها نمل بشرية تتراعى من بعيد كأنها بعض هوام الجبل أو زواحفه . وسألت فعلت أن شركة إيطالية قد حصلت من الحكومة على امتياز لاستغلال هذا الجبل وأنها تحصل منه على نوع من الرخام النادر تصدر معظمه إلى باريس بالذات دون بلاد العالم لكثرة الحاجة إليه في مبانيها الأنيقة الحديثة . وأن هذه الشركة قد أثرت من وراء هذا العمل ثراء طائلاً . فأجبت أن نقف قليلاً لنصل بعالم هذا الحجر وتحدث اليهم ففسرى عن أنفسنا ونسرى عنهم . وفي أمثال تلك البقاع النائية يصدق قول القائل : وكل غريب للغريب نسيب !

وكانت حالة السيارات تقتضى هذه الوقفة أيضاً ، فإنها كانت قد شربت كل ما معنا من الماء وكانت في حاجة أيضاً إلى الماء . فترجلنا لنملأ صهاريجها ، واتجهت وبعض من معى إلى أولئك العمال فاذا هم جميعاً من أهل الصعيد - تلك الطائفة النيلة التي شيد أجدادها مجد الفراعة وخلدوا آثارهم في وادى الملوك وغير وادى الملوك ، وها هو ذا الخلف اليوم لا يجد من يستجد بكتفه وذراعه غير الأجني فيلبى دعوة القوت وسط تلك الأصقاع السحيقة القاحلة يقضى عمره ويفنى حياته في قطع الرخام وحمله ليجده في آخر النهار ما يسد به رمقه . ولينعم حسان باريس بالروثق البهى والرواء الحسن . وليقف المفاول الايطالى بين الطرفين يستغل جهد المصرى وثرأ الباريسى في آن واحد . وأردت أن أعرف من أين يحصل هؤلاء العمال على الزاد

نستقى من (زير) بجوار سوق في إحدى قرى الريف ، فهو يريد أن يكفل نظافة (الكوز) مما يكون قد علق به من الغبار وأردت أن أعوض ماشرته الأرض من مائى العزير فاقصدت في الجرعة التي شربتها واكتفيت منها بمصتين لأنى كنت أقدر مانحن مقبلون عليه من الجفاف والجذب . ولكن حلاً لبقية الصخب أن يستقوا فأدار الساقى عليهم من أكوابى ، ودخلت الصحراء بنصف ما كنت تزودت لها به من الماء . وكانت هذه خسارتى الثانية في مستهل الطريق

وحملنا (المعدية) بسياراتنا فقلطنا إلى الشاطئ الشرقى . وبدأنا عقب ذلك رحلتنا الشاقة في وسط الصحراء حيث لا شيء إلا الحصى والرمال في طريق متشابهة لا أثر فيها لأى نوع من أنواع الحياة . ولبثنا نضرب في تلك البداء حتى أدركنا الظهر - ولكنها على كل حال كنا نسمر بمختلف الأحاديث - وكان الذين سبقونا إلى ارتياد هذا الطريق لا يضنون علينا بشرح ما يعرفونه من معالم ، وأحياناً أيضاً بشرح مالا يعرفون استجابة منهم لنداء تلك الغريزة العجيبة التي ركبت في كل نفس والتي تجعل صاحبها يلتذ أن يتظاهر بالعلم أمام من لا يعلم !

وكانت سيارة الايطالى في مقدمة الركب . وقد قبع الدليل البدوى على مقدمها ليلجأ إليه صاحبه كلما أعوزته المشورة في أمر الطريق . وفي النهاية لاحت لنا أشجار الطرفاء ، التي تزين (وادى الغراندل) وهو واد واسع يكثر فيه النخيل ولا ينقطع منه الماء طول العام . وبدأنا نرى الناس من جديد بعد أن كنا نظن أننا انقطعنا عن العالم - ولكن بالهم من ناس ... لقد كانوا أشباحاً في أمثال ... أجسام رقيقة مديدة ضميرها الجوع . وعيون فاترة غائرة أطفأها الفقر والجذب . كانوا يحيطون بنا ويعدون إلى جانبنا ويلاحقوننا كما كانت تفعل جنادب الوادى الذى يعيشون فيه . أما سياراتنا فكانت عند اجتيازها لهذا الوادى تجرى فوق مياهه . إذ لم يكن أمامنا طريق أخرى غير بطنه ، فكانت أشبه بالزوارق البخارية منها بالسيارات . ولقد عايننا كثيراً ونحن نجتاز هذه المرحلة من طريقنا لأن الماء كان يتسرب إلى داخل آلات السيارة كلما أدركنا مخاضة بعيدة الغور نوعاً ما . وكان الوبل للسيارة التي يصيبها ذلك ، لأن الركب ما كان ليقف لأمثال تلك الأحداث ، فكانت

والماء — ولعل الباعث الخفى لسؤالى كان حرصى على الاطمئنان على نفسى ومصيرها فى هذا القفر قبل أن يكون إشباع حب الاستطلاع فيها عن حالة هؤلاء المساكين — قفيل لى بأن باخرة تقدم من السويس كل شهر تقريباً فتحمل اليهم الزاد والماء الذى يكفيهم حتى موعد الزوررة التالية ، فبدت على أنا وزملائى علامم الشفاق والرثاء . ولكن جرننا الحديث إلى ذكر المناثر التى تقع على شاطئ البحر الأحمر التى تضم كل واحدة منها ثلاثة من الموظفين المصريين فى حالة عزلة تامة عن العالم لمدة تسعة شهور ، إذ أن كل منارة من هذه المناثر يديرها أربعة من الموظفين يعمل كل واحد منهم تسعة شهور متتالية فى العام ويحصل على أجازة سنوية تستغرق الثلاثة شهور الأخرى . ولذلك فإن ثلاثة منهم فقط يجتمعون فى العمل ويكون الرابع فى إجازته ، حتى إذا عاد هو قام من يكون عليه الدور وهكذا . وأن الواحد من هؤلاء الموظفين متى استلم عمله فى منارة فإنه ينقطع عن العالم وأخباره حتى يحل موعد وصول الباخرة التى تأتيم بالطعام والماء مرة فى كل شهر . وهم من خلال هذا الشهر لا يقرأون الصحف ولا سبيل لهم إلى معرفة ما يكون قد مر على العالم من أحداث ، وما يكون قد طرأ عليه من حروب . وعجبت من شأن الحكومة مع هؤلاء الناس ومن شأنهم هم مع أنفسهم . فأننا أصبحنا اليوم نسمع الراديو فى السيارات الخاصة وهى تسير وسط الطرقات العامرة الزاخرة ، ثم ها نحن أولاء نسمع من أمثال هذه المناثر التى تترك بغير جهاز ولا صفير من هذه الأجهزة الكفيلة بأن تنقل أهلها من عزلتهم فتضعهم فى وسط العمران والحياة

كان بيننا وبين (حمام فرعون) ونحن فى ذلك الحجر بضع كيلومترات قد لا تزيد على خمسة أو ستة ، ولكن ما كابدناه فى قطع هذه المرحلة القصيرة فاق كل ما لاقيناه فى طول الرحلة منذ بدايتها ، ذلك بأن الطريق كان قد انقطع عند الحجر ، وأصبح علينا بعد ذلك أن نسير فى أرض بكر لا تطرقها السيارات إلا كلما حلأ أمثالنا أن يزور ذلك المكان ، وهو نادر قليل ، وكانت طبيعة الأرض فى تلك الجهة جامعة نافرة ، فبيناهى صلبة فى بعض نواحيها إذا هى رخوة تغوص القدم فى رمالها فى نواحيها الأخرى

وكان فى انتقال السيارة من الصلب إلى الرخو ثم من الرخو إلى الصلب ما فيه من إجهاد للسائق وللراكب والآلات نفسها ، وذلك لما تستدعيه طبيعة كل ناحية من تغيير درجات السرعة وتحريك رافعات السيارة واحدة بعد أخرى بما يناسب حالة الطريق وقد حدث أننا خسرنا فعلاً إحدى سيارتنا فقد انكسرت بعض آلاتها فى هذه التقلبات السريعة المفاجئة ، واضطررنا إلى التخلي عنها وسط الطريق بعد أن توزعت حمولتها على بقية السيارات فزادت فى عسر حركتها وتعريضها هى الأخرى للتلف ، وليس يفوتنى هنا أن أقول إن هذه السيارة بالذات كانت سيارة تاجر الاسماعيلية الذى لم يكن من سبب لأشراكه فى هذه الرحلة غير سيارته ، ولكن هكذا قدر الله فى لوجه أن يأتى أجل هذه السيارة فى تلك القعة الموحشة . وصدق الله العظيم و (ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) وقديماً قيل : إذا ما حام المرء كان يبلدة دعتة إليها حاجة فيطير وقبل العصر بقليل ألقت القافلة عصاها فى سفح جبل عال كان يواجها ، وقيل لنا انزلوا : فهذا هو حمام فرعون ،

وثبت من سيارتى فرحاً وقد نسيت أمام بلوغ الهدف كل مالاقيه خلال الرحلة من مشقة . ولم أنتظر حتى يتقدمنى من له علم بالمكان . لأنى لم أكن رأيت فى حياتى قط عينا حارة . ولكنى كما هو الحال دائماً فى أمثال هذه الشئون كنت قد صورتها لنفسى بعين خيالى . وكنت شديد الشغف الآن بأن أقابل بين الحقيقة وبين الخيال . فما كان أشد الفرق بين الصورتين !

كنت أتصور النبع على صورة (الفسقية) ينبثق من وسطها خرطوم عال من الماء له رشاش من حوله ثم يتجمع الماء فى حوض حول العين ثم لا يلبث أن يفيض من الحوض إلى ذلك الجرى الطويل الذى حدثونا عنه . وكنت أتخيل هذا الجرى فى صورة قناة جميلة وسط صخور صلبة ينساب الماء فيها رائقاً صافياً كتلك القناة الجميلة البيضاء التى ما تزال آثارها باقية فى وادى خوف ، بحلوان والتى كنا نتناول فيها غداًنا كلما رحلنا إلى تلك الجهة . فادرت عيني بسرعة فيما يحيط بى أبحث عن تلك الفسقية أو عن هذه القناة فلم أجد لا أحدهما أثراً ، فخاب ظنى لأول

المقادير إلا أن نأكله هو متبلاً بالتراب ومحشواً بصغار الحصى، ومع ذلك فقد كنا نحافظه وتنافس في التطويح بما نصيه منه إلى أفواهنا قيل أن تنفخ فيه ونندرو عنه معلق به من الرمال، فيا سبحان الله ! أهكذا يحلو المر أحياناً في هذه الحياة ! وماذا بقى لنا من الحقائق المطلقة في ديانا وكل شيء فيها اعتبارى كما نرى ؟ إلا أن الحسن إنما يكون حسناً في ظل رضا النفس، والقيح إنما يقبح بزوال هذه الحالة عن النفس ! والسعادة مهما اختلف الناس في أسبابها فهي من الكثير الغالب من صنع أيدينا وفي القليل النادر من صنع المقادير .

•••

ولم نهجع عقب الطعام بل انتشرنا في المكان نرتاده وننسلق الجبل وندخل الغار بأطراف رءوسنا ثم نخرجها سراعاً لكثرة ما ألقى في روعنا من أنه شديد الحرارة يذيب نخاع الرءوس . وقضينا على ذلك ساعة وبعض ساعة حتى أوشك النهار أن ينقضى فتأهبنا لأخذ الحمام المرتجى، وانصرف كل واحد منا إلى صخرة نوارى خلفها فخلع ملابسه . وارتدى قميص البحر . ولم تكن إلا هنية حتى استحال المكان إلى « بلاج »، أتيق صغيراً وأولئك الفراغة الصغار الذين جاءوا من أقصى الأرض ليحققوا للمكان اسمه ويؤيدوا له لقبه . وكان الأعرابي الذي مع الإيطالي قد احتمل فأساً وقصد إلى أوسع مكان في القناة فعمقه وأبعد غوره كما يتسع لأجسامنا ويصلح للاضطجاع . فزولناه واحداً بعد واحد وساعدنا ذلك على رفع مستوى الماء قليلاً فما زلنا نتقلب فيه وتلبط . وهواء المساء البارد يصفع أجسادنا الحارة ونحن نصر على أن نومه أنفسنا بأننا نأخذ حماماً ساخناً حتى أدركنا أن إصرارنا سيكون وخيم العاقبة إذا نحن تمادينا في تحدى الطبيعة إلى أبعد من هذا الحد، فخرجنا ترائب من حفرتنا كجماعة الضفدع دهبها داهم وهي ترتل في مخالبها أناشيد المساء !

ولما نزل بنا الليل كان الهواء النائر قد سكن، والتراب السافي قد استقر، ولاحت النجوم في السماء زاهية زاهرة . وأشهد أنى لم أر السماء طول حياتي كما رأيته في تلك الليلة . فلقد اعتدنا أن نراها ونحن في المدن من خلال المباني الضاربة في الفضاء، ومن خلال النوافذ الضيقة، فكنا لا نرى إلا قطعاً منها تنهب التجزئة

وهلة وأحسست بقلبي يتراجع قليلاً في صدرى شأن من يفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه . ولكن سرعان ما استغرق بصري ذلك الجبل العظيم الذي كنا نقف في كنفه . فصوبت عيني فيه وصعدتها فأخذتني عظمتها . ولمحت في صفحته ثغرة سوداء قريبة من سطح الأرض، فأدركت أنها لابد أن تكون مدخل الكهف الموعود . وكان هذا الجبل يقوم على شاطئ البحر ليس بينه وبين الماء في البقعة التي وقفنا فيها أكثر من خمسين متراً، ثم هو يمتد محاذياً للشاطئ مسافة مائتي متر أو ثلثمائة متر، وبعد ذلك يتصل بالماء رأساً فيرتطم موج البحر بقدميه ويتحطم على صخوره السوداء . ولفت نظري في ذلك المثلث الرملي الضيق الذي كنا نقف على قاعدته أن قناة ضحلة تجري وسطه فتتبعها يبصرى مسرعاً فرأيتها تبدأ عند قاعدة الجبل ولكن لم أتبين من أين ينبثق ماؤها . فدللت إليها حتى جئت المكان الذي ينبعث منه الماء فإذا هو ثلثة ضيقة بين صخرين يسيل منها الماء كما يسيل من صنوبر متوسط الحجم فيجري على الصخور المجاورة حتى تنسله رمال الساحل فتبلغ منه ما تبلعه وتترك الباقي ينداح على صدرها حتى يصب في البحر . وكانت رائحة الكبريت ساطعة تملأ الجو، ولكن الماء كان يجري كالبلور المذاب لا يعلوه بخار ولا يبدو عليه أنه حار . فأغراني ذلك بأن أمد إليه أصبعي ولكني ماكدت أفعل حتى سحبتها صارخاً كأنما اندق فيها مسمار . فأثلجت هذه اللسعة صدرى . ومنيت نفسي بالحمام الساخن الذي قطعت من أجله كل تلك القفار . فلست أعرف في متع هذه الحيلة ما هو أحب إلى نفسي من الحمام الساخن !

•••

وكان إخواني قد أدركوني وحف بعضهم بالنبع وانطلق بعضهم يسير القناة . أما الإيطالي فإنه اشتغل بنصب الخيام وشامت المصادفات أن يكون الهواء في ذلك اليوم قوياً ثقيلًا فكان يسفى علينا التراب ونحن لا نجد ما نختمى فيه حتى قامت خيام الإيطالي فأوينا إليها وقد نال منا الجوع، ونشر الخادم بين يدينا عليه ولفائفه وأدار علينا الخبز فالتهناه بما أصابت أيدينا من جبن وزيتون وقديد وما إلى ذلك مما كان قد أعد لتبيل أغنام الرعاة المنتظرة وسمك الصيادين الموعود، فأبت علينا

محسوساً في الحرارة فسرنا ذلك ، وبقينا فيه أيضاً حتى ألقناه ثم أوغلنا ثانية ، وهكذا حتى أصبحنا في قرار الكهف حيث الظلام الشامل . فما كان أروع منظرنا ونحن نزحف في نواحي المكان كالحفافيش والعالم من خلفنا على باب الكهف ساطع بهيج ! وكنا قد احتملنا معاً مناقشنا فلم تكن ترى فينا إلا شبحاً يستوى قاعدة فيأخذ في تدليك جسمه بمنشفه حتى يجفف عرقه فلا يكاد يرقد حتى يقوم إلى جانبه شبح آخر يظل يهزج ويحك ذراعه بذراعه فلا ينتهي حتى يسلم هذه المهمة لسواه ، وهكذا حتى أحسنا بحلو قنأ آخر الأمر تكاد تجف من فرط ما عرقنا وأفرزنا من ماء جسمنا فحولنا على الانسحاب . وكان حتماً علينا أن ننسحب متدرجين كما أوغلنا متدرجين حتى لا تقتلنا الطفرة أو يؤذينا الانتقال السريع . فقضينا في هذا الانسحاب زمناً ليس بالقليل ولم نستطع أن نركب سياراتنا إلا بعد أن انتصف النهار . ونسيت أن أقول إننا أتينا بعد خروجنا على ماء الصفيحتين فشربناه وظللنا من بعده يومين ونحن نتجشأ بنزينا قويا يكاد يريحه يضىء ولو لم تمسه نار !

٥٥٥

انقضت بعد عودتنا أيام رأيت في خلالها بعض الصحاب فكان حديثهم تردداً لما لاقينا من وعاء الطريق ، وما قاسينا من سعار الكهف . ثم قابلت صاحبنا الإيطالي فكان حديثه أنه يفكر في الحصول من الحكومة على امتياز لاستغلال النبع وإقامة فندق صغير بجواره وتهيته بواخر خفيفة تصل بينه وبين السويس حتى تنقلب الرحلة إلى متعة ينعم بها المستثنى بدل أن تبقى كما هي الآن مشقة ينوء بها الرياضي . فتهتف في نفسى هاتف : « يعيش الدوتشي ! » ، وقلت لحديثي : لمثل هذا فليعمل العاملون .

مسح مهمل

العدد ١٨٣ من الرسالة

نقدت طبعة هذا العدد فليس في الإدارة منه شيء فزجرو من الذين يطلبونه أن ينتظروا حتى نعيد طبعه ويومئذ سنعلن في الرسالة عن موعد توزيعه

فيها بجمال المجموع . أما في تلك الليلة فقد راقنا أن تنام في العراء فبسطنا فراشنا فوق الرمل وألقينا عليه وسائدنا ثم انطرحنا على ظهرنا واتجهنا بأبصارنا في السماء فراعنا ، وبدت لنا النجوم كما لو كنا لم نرها قط قبل تلك اللحظة . وإني لأذكر الآن كيف أننا جميعاً أصابنا وجوم مشترك أمام عظمة هذا المشهد حتى لقد بقينا فترة لم ينبس فيها واحد منا بحرف . فلما نطق أول متكلم فينا وتحدث بمراعاة من منظر السماء اندفعنا جميعاً نكرر معنى واحداً في عبارات مختلفة ، وأدركنا أننا في سكوننا كنا تحت تأثير واحد ، وأن أحداً منا لم يستطع أن يفلت من جاذبيته !

٥٥٥

وفي غداة اليوم التالي تنفسنا مع الصبح جميعاً . ومنا من كانت قد انقضت عليه أعوام وأعوام وهو لا يرى الشمس كل صباح إلا بعد أن ترقى حدود الأفاق بزمان طويل . وهبنا من مضاجعنا خفافاً تفيض حركاتنا بالقوة والنشاط ، وكانت مفاجأة الصباح التي أعدتها لنا طبيعة المكان أننا أردنا أن نتخلق لحانا فامتعت عن الصايون مياه النبع ؛ وعبثاً حاولنا إحداث الرغرة المطلوبة على الرغم من إسرافنا في الدتلك والفرك ؛ ولم نشأ أن نضحى ببقية مائتنا العذب في شؤون زينتنا ، فطال ركوعنا على حافة القناة حيث اجتمعنا في شبه (صالون) خشن حقير !

وكنا قد أحسنا في المساء أن ذخيرتنا من الماء كادت أن تنفذ ، فاحتلنا في الحصول على مدد فلم نجد إلا صفيحتين فارغتين من صفائح البنزين فبعثنا بهما مع خادم ليلاًهما من ماء الوادي فعاد بهما إلينا ونحن تناول طعام الفطور ، فكرعنا من مائهما ما كنا في حاجة إليه ، فاذا هو في مذاقه أشد نكراً من ماء النبع فهذا فيه طعم الكبريت . أما ذاك فانه عبق برائحة البنزين والبتروول .

وكنتم أجمع العردة مع بعض الصحاب في ظهر ذلك اليوم فرأينا أن نقضي الساعة التي بقيت لنا في جوف الكهف حتى لا يكون قد فاتنا شيء من متع المكان قبل أن نبرحه . فعدنا إلى قصان البحر فارتدبناها ونشرنا شيئاً من الفراش في أرض الغار ثم دخلنا فرقدنا فوقها ولكننا لم نلبث أن اعتدنا حرارة المكان الذي استلقينا فيه ، فأوغلنا قليلاً فوجدنا فارقاً